الفصل الثالث

فوضى وسائل الإعلام: بث الجنون المعادي للمسلمين
Media Mayhem: Broadcasting Anti-Muslim Madness

كما هو الحال مع أيَّة صناعة، فإن الدعاية تُعدُّ أمراً بالغ الأهمية لنجاح المنتج. ولا يحتاج المرء أن ينظر إلى ما هو أبعد من مسابقة السوبر بول Super Bowl لكي يفهم الهاجس البَحْت الخاص بصناعة الإعلان؛ بهدف الوصول إلى العدد الهائل من الناس. وفي كل عام، يجري تقديم مساحات قصيرة لأعلى المزايدين لنشر مقاطع جذّابة لبضائعهم، سواء كانت منتجات الكوكا كولا، أو أحذية نايكي، أو غيرها من المؤسسات عالية التداول بعدة ملايين من الدولارات.

وتبذل صناعة الخوف من الإسلام أيضاً جهداً كبيراً لإيصال رسالتها إلى الجمهور. وعلى أية حال، فإنَّ الفرق هو أنه في كثير من الحالات تكون الشبكات التي تروِّج لمنتجاتها هي ذاتها المشاركة في الخديعة؛ بهدف إثارة الخوف العام من المسلمين. إنها ليست علاقة بين البائع والمشتري، حيث تقوم الشخصيات المختلفة التي تبثُّ الذعر بشراء مساحات على شبكات تلفزيونية رئيسة بهدف الترويج لبضاعتها. في الواقع، إنها علاقة المنفعة المتبادلة، حيث تلتقي الأيديولوجيات والميول السياسية للدفع بالأجندة ذاتها.

وتُعدُّ فوكس نيوز Fox News، المحطة التلفزيونية الأمريكية التي تُصنِّف نفسها بأنها "عادلة ومتوازنة"، مثالاً لهذه العلاقة. فقد كانت، لفترة طويلة من العقد الماضي، في خِضمِّ حملة تخويف الناس من الإسلام، ومازالت الملجأ لعدد كبير من الناشطين اليمينيِّين الذين يرتادون موجاتِ أثيرها بانتظام بهدف تشويه الحقيقة، والدفع بالصور النمطية عن المسلمين. إنه ليس من المفاجئ إذاً أن يجد استطلاع لمعهد بروكينغز حول القيم الأمريكية، الذي أُجري في سبتمبر (أيلول) ٢٠١١، أنَّ ما يقرب من ثلثي الجمهوريين، والأمريكيين الذين يتعاطفون مع حركة حزب الشاي، ومعظم الأمريكيين الذين يثقون بمحطة فوكس، يتّفقون على أن قيم الإسلام هي على خلاف مع قيم الولايات المتحدة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ ما يقرب من ستة من كل عشرة جمهوريين الذين يقولون إنهم يثقون بمحطة فوكس يقولون أيضاً أنهم يعتقدون أن المسلمين الأمريكيين يحاولون إقامة الشريعة الإسلامية في أمريكا. وفي المقابل، فإنَّ مواقف الجمهوريين الذين يشاهدون الشبكات الإخبارية الأخرى تنسجم مع عامة الناس[1].

وفي شهر ديسمبر (كانون الثاني) ٢٠٠٩، أجرت المضيفة لورا إنغراهام Laura Ingraham في محطة فوكس نيوز مقابلة مع ديزي خان Daisy Khan، زوجة الإمام فيصل عبد الرؤوف الذي كان يقود الحملة الأولى لمركز بارك ٥١ الاجتماعي. في ذلك الوقت، كان هناك جدل ضئيل حيال الخطط الرامية للبناء المقترح –كان الجدل ضئيلاً لدرجة أنَّ إنغراهام نفسها اعترفت أنها كانت معجبة بما كانت تفعله خان وزوجها. حيث قالت على الهواء "لا أعتقد أنّ هناك الكثير من الناس لديهم مشكلة في ذلك". وأضافت:"أنا أعرف أنَّ فريقكم يتبنّى نهجاً معتدلاً تجاه أمركة الناس، واستيعابهم، وأنا أحيِّي ذلك، وأعتقد أنه أمرٌ رائع"[2].

ولكن سرعان ما تغيَّر هذا الموقف. على الأقل من وجهة نظر لورا انغراهام التي–في حركة سريعة–أوقعت نفسها فجأة في حالة الغضب والهيجان التي أثارها كلٌ من باميلا جيلير، وروبرت سبنسر، حيث قالت ساخرة خلال مقابلة مع شبكة أيه بي سي نيوز ABC News في شهر أغسطس (آب) من العام ٢٠١٠: "أقول أنَّ الإرهابيِّين قد فازوا بالطريقة التي سارت عليها الأمور". وأضافت: "على بُعد ستمائة قدم من المكان الذي جرى فيه إحراق الآلاف من إخواننا الأمريكيين باسم الإسلام السياسي، ونحن من المفترض أن نكون–من المفترض أن نكون متعصِّبين إذا لم نهلِّل لذلك"؟[3]

لقد انقضى ما يزيد على ثمانية أشهر بقليل. وعلى أية حال، فقد هيمن على ذلك الصيف ظهور مجموعة متطرفة من المدوِّنين الذين خلقوا جدلاً حيال أمرٍ لم يكن موجوداً أصلاً. وكانت كتابات باميلا جيلير المشحونة حيال "مسجد الطابق صفر" (غراوند زيرو) في أوائل مايو (أيار) ٢٠١٠ قد جذبت اهتمام أندريا بيسر Andrea Peyser من صحيفة نيويورك بوست، وهي صحيفة محافظة تعود ملكيتها لـ روبيرت مردوخ Rupert Murdoch، الرجل الذي يتربّع على قمة محطة فوكس نيوز. ووصلت رسالة جيلير الغاضبة التي ردّدتها أندريا بيسر إلى مئات الآلاف من الناس، وحوَّلت ما كان يُعرف في مرحلة ما على أنه نظرية المؤامرة من جهة بعض المتصيِّدين اليمينيِّين المجهولين على شبكة الإنترنت إلى قصة جديدة ذات أهمية كبيرة.

وكان شون هانيتي Sean Hannity من محطة فوكس نيوز قد قرأ ما كتبته بيسر. كما كان يعرف باميلا جيلير حقَّ المعرفة، حيث قام في ١٣ مايو (أيار)،٢٠١٠–فقط بعد أيام من تحوِّل القصة لتصبح أخباراً وطنية–بدعوة جيلير إلى برنامجه للحديث عن ذلك. وقال "هناك مسجد عملاق يجري التخطيط لبنائه في المنطقة المتاخمة تماماً لموقع غراوند زيرو". وبطبيعة الحال، فقد كان المركز الاجتماعي بارك ٥١–المؤلّف من ١٣

طابقاً–صغيراً نسبيّاً بالمقارنة مع ناطحات السحاب الشاهقة التي كانت تحلِّق فوق شوارع منطقة وسط مانهاتن. ولكن كلمة "عملاق" كان لها وقعٌ مخيف محدَّد سعى إلى ترويجه كلٌ من هانيتي وجيلير. وقال "كتبت أندريا بيسر عن ذلك في صحيفة نيويورك بوست اليوم". وأضاف "تقوم صاحبة أطلس الاستهجان باميلا جيلير، وهي مدوِّنة وكاتبة عمود، بالإعداد لمسيرة بعنوان 'لا لبناء مسجد ٩/١١' في موقع غراوند زيرو في السادس من يونيو (حزيران) للاحتجاج على تشييد البناء، وهي تنضمُّ لنا الآن على خط صانع الأخبار الخاص بنا "[4].

وتشير تقارير مجموعة "ميديا ماترز" Media Matters إلى أنه في الفترة الواقعة ما بين ١٣مايو (أيار)،٢٠١٠، وحتى ١٢ أغسطس (آب)، ٢٠١٠–أي فترة ٩١ يوماً– قامت محطة فوكس نيوز باستضافة ٤٧ ضيفاً مختلفاً على الأقل لمناقشة المشروع، حيث كان ٥٧ منهم ممن كانوا يعارضونه[5]. وقد جرى مراجعة نصوص نيكسيس Nexis من نشرات الأخبار الخاصة بمحطة فوكس خلال فترة الثلاثة عشر أسبوعاً تلك ليتبيِّن أن تسعة فقط من بين السبعة وأربعين ضيفاً الذين ظهروا خلال تلك الفترة كانوا ممن يدعمون المركز. وفي بعض الحالات، أعرب الضيوف عن معارضتهم الشخصية تجاه المركز، إلاّ أنهم رفضوا فكرة إيقافه بطريقة أو بأخرى. وكان خوان وليامز Juan Williams–وهو مراسل سابق لإذاعة ناشيونال بابليك راديو National Public Radio (NPR)–واحداً من بين هؤلاء، حيث ظهر في برنامج هانيتي ليقول لمضيف محطة فوكس "إنني أتفق معك حول فكرة أنه لا ينبغي بناء المسجد". وأضاف "ولكن هذا لا يعني أنّنا، كأمريكيِّين، يمكن أن نقول له [رؤوف] 'لا، لا يمكنك أن تبني هنا'. فهذا خطأ "[6]. وكان وليامز قد عبّر عن رأيه بصراحة، وقد كان يفعل ذلك على نحو منتظم–الأمر الذي أدّى إلى خسارته لوظيفته بعد شهرين.

* * *

وفي شهر أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١٠، حلَّ ويليامز ضيفاً على محطة فوكس نيوز مرة أخرى. ولكن هذه المرة، وبدلاً أن يظهر في برنامج شون هانيتي، تبادل أطراف الحديث مع بيل أورايلي Bill O'Reilly. وكان مشروع بارك ٥١ هو محور الحديث. وبما أنه كان يعمل محلِّلاً لصالح إذاعة ناشيونال بابليك راديو، فقد كان الحديث يدور في ملعبه. وكان ويليامز قد تغلَّب على ما هو شائك من القضايا السياسية من قبل، وكان حريصاً على عدم الكشف عن آرائه الشخصية. ولكن كان من الواضح أنَّ محطة فوكس نيوز وبيل أورايلي لديهما أجندة ما، فقد بدا واضحاً أن أورايلي كان يبحث عن شخص ما ليسانده، وخصوصاً بعد أن كان قد أثار شرارة صغيرة من الجدل في وقت سابق من العام بقوله "لقد هاجمنا المسلمون في ١١/ ٩".

وذكر ويليامز أنَّ "الصواب السياسي يمكن أن يؤدي إلى نوع من الشلل عندما لا نتعامل مع الحقيقة". وأضاف: "وأعني، انظر يا بيل، إنني لست متعصِّباً، فأنت تعرف نوع الكتب التي كتبتُها عن حركة الحقوق المدنية في البلاد. ولكن عندما أصعد على متن الطائرة، فمن واجبي أن أخبرك، إذا رأيت أناساً يرتدون الزيّ الإسلامي، فإنني أعتقد، كما تعلم، أنهم يعرِّفون عن أنفسهم أولاً وقبل كل شيء على أنهم مسلمون، وهذا الأمر يقلقني. كما أنه يصيبني بالتوتر"[7].

ولا يبدو أنّ ذلك التصريح قد أفزع أورايلي. ففي الواقع، كان ذلك مناسباً على وجه التحديد للرواية التي كان يحيكها، وهي أنَّ: المسلمين هم أناس يُخشى منهم، وخاصة أولئك الذين يركبون الطائرات. على أية حال، فقد كان خبر تلك التعليقات مقلقاً لدى إذاعة ناشيونال بابليك راديو NPR، حيث إنه وبصفته محللاً سياسياً، لم تكن مسؤولية ويليامز أن يقوم بتقديم آرائه بشأن هذه القضايا. وفي الواقع، فإنه لم يتلقَّ أيَّ مقابل مادِّي لقاء تقديم آرائه على الإطلاق، كما أنَّ توجيه ضربة شاملة على نحو

صارخ تجاه المجتمع الإسلامي لأنه كان يشتبه به لم يكن ضمن الحفاظ على المعايير الصحافية لإذاعة ناشيونال بابليك راديو NPR. على أية حال، جاء عزل وليامز من منصبه بعد ذلك بوقت قصير. وعلى الرغم من صدمته في البداية جرّاء إنهاء عقده، إلاّ أنّ أخباراً سعيدة كانت بانتظاره، إذ إنّ التصريحات النمطية كانت تستحق مبلغاً مهولاً بمقدار ٢ مليون دولار–وهو المبلغ الذي عرضته فوكس نيوز على وليامز لتمديد عقدٍ مدته ثلاث سنوات مع شبكتهم الإذاعية[8]. وعلّق أحد المستخدمين على موقع الإذاعة على الشبكة قائلاً أنه: "من إحدى الخطوات المتغطرسة لإذاعة ناشيونال بابليك راديو NPR أنها كشفت عن نفسها كونها تتبنى فكراً بوليسيّاً يساريّاً يعبِّر عن حقيقتها"[9]. ربما كان ذلك واقعاً، إلاّ أنَّ قيام شبكة فوكس نيوز بإسناد دور موسَّع لويليامز، تكون قد شجّعت وفعلاً موّلت صناعة الخوف من الإسلام (إسلاموفوبيا).

* * *

وقد رأى بعض الناس بأن مشاهدي محطة فوكس نيوز لا يكوِّنون وجهات نظرهم السلبية عن الإسلام نتيجة لما تبثُّه المحطة من برامج، ولكنهم يندفعون وراء تلك البرامج التي تعزِّز وتؤكد وجهة نظر ضالعة بالتحيز ضد المسلمين، وموجودة مسبقاً. وحتى وإن كان الأمر كذلك، فإنّ شبكة فوكس نيوز قد دأبت على بثِّ مناخ من شأنه أن يؤدِّي لمثل هذه المشاعر، حيث إذا قام مشاهدون موضوعيّون ممن لا توجد لديهم وجهة نظر عن الإسلام والمسلمين بمتابعة حلقة من برنامج هانيتي أو أورايلي، فإنه من المحتمل ألاّ تترك لديهم هذه البرامج انطباعاً يتميّز بكونه "عادلاً ومتوازناً"، حيث تكون الأعداد هي الدليل على ذلك.

وفي شهر فبراير (شباط) من العام ٢٠١١، أصدر موقع "تطور الفكر" Think Progress على الإنترنت دراسة تفصيليّة تبيّن الطرق المحدَّدة التي تنهجها شبكة فوكس

نيوز بحيث تتلاعب باستخدام اللغة لكي تلمِّح-أو في كثير من الأحيان-تُصرّح بوضوح، بأنّه ينبغي علينا أن نخشى الإسلام والمسلمين. وعن طريق استخدام موادّ جرى جمعها من البرامج التلفزيونية المختلفة على مدار ثلاثة أشهر، من شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، ٢٠١٠، إلى شهر يناير (كانون الثاني) ٢٠١١، أظهر رسم بياني أن الشبكة قد روَّجت على نحو غير متناسب عبارات تعكس وجهة نظر سلبية عن المسلمين، بحيث تتجاوز منافسي شبكة فوكس نيوز. على سبيل المثال، قامت شبكة فوكس باستخدام مصطلح "الشريعة" ٥٨ مرة على مدار ثلاثة أشهر، في حين استخدمت شبكة سي إن إن CNN هذا المصطلح ٢١ مرة، أما شبكة إم إس إن بي سي MSNBC، فقد استخدمته ١٩ مرة. وبالمثل، قام مقدّمو البرامج في فوكس باستحضار عبارات "الإسلام المتطرف" أو "الإسلام المتشدِّد" ١٠٧ مرات في ثلاثة أشهر، بينما استخدمت شبكة CNN المصطلح ٧٨مرة، واستخدمته شبكة MSNBC ٢٤ مرّة فقط. وعلاوة على ذلك، استخدمت فوكس كلمة "الجهاد" ٦٥ مرّة، في حين استخدمته CNN ٥٧ مرّة، وMSNBC ١٣ مرّة[10].

وإنَّ المشكلة الحقيقية لا تكمن في تصنيف شبكة فوكس نيوز باستمرار على قمة لائحة الشبكات التي تروّج لهذه المصطلحات، بل إنما هي الطريقة التي تعكف عليها الشبكة *باستخدام* هذه المصطلحات، بحيث تكون في كثير من الأحيان جزءاً من القصص التي تهدف إلى تضخيم الفكرة حيال وجود أفراد مزعومين من المسلمين الشنيعين الذين إما أنَّهم كانوا قد شاركوا في بعض أعمال العنف، أو أنهم كانوا يشقّون طريقهم إلى داخل النسيج السياسي للولايات المتحدة. وفي شهر أغسطس (آب)، ٢٠٠٦، على سبيل المثال، اقترح ضيف فوكس نيوز مايك غالاغر Mike Gallagher بأن يكون هناك في المطارات الأمريكية "مسار تفتيش خاص بجميع المسلمين"[11]. وبعد حادثة إطلاق النار في موقع

فورت هود Fort Hood في نوفمبر (تشرين الثاني)، ٢٠٠٩–كمثال آخر–اقترح مضيف أحد البرامج في شبكة فوكس اسمه برايان كيلميد Brian Kilmeade بأن يُطبّق "تدقيق خاص" على الجنود الأمريكيين من المسلمين[12]. وفي العام ٢٠١٠، كان بيل أورايلي–المضيف في برنامج "عامل أورايلي" The O'Reily Factor –قد ذكر بصراحة أنه "لا يوجد أدنى شك في وجود مشكلة حول المسلمين في العالم"[13]. وفي شهرأغسطس (آب)،٢٠١٠، ذكر جلين بيك Glenn Beck في إحدى حلقات برنامج عنوانه "برنامج جلين بيك" The Glenn Beck Show قائلاً: "ادعموا برامج الحكومة الخاصة بالتوعية عن المسلمين، اتفقنا؟ لقد تعبت من هذا الأمر، ولا يهمُّني أمر بقية العالم، إنه لا يهمُّني "[14]. لقد كانت الشبكة متلهفة للقفز على أية قصة من شأنها أن تُظهر المسلمين في صورة غريبة أو سلبية، فقد أحرجت الشبكة نفسها في مارس (آذار)، ٢٠١١، بعد أن نشرت مقالاً على موقعها على شبكة الإنترنت تزعم فيه أنّ المجلس الإسلامي في باكستان قد حظر بيع حمالات الصدر المبطَّنة[15]. وبعد تتبُّع المعلومة إلى مصدرها الأصلي من موقع على الشبكة بعنوان "البصل" The Onion، فقد اتَّضح فيما بعد أنَّ القصة كانت عبارة عن مقالة ساخرة، وهي واحدة من بين الكثير من المقالات التي ينشرها الموقع الكوميدي على نحو روتيني بهدف السخرية من الحالات المجتمعية الغريبة.

وبطبيعة الحال، فإنَّ هذه الأمثلة لا تُمثِّل سوى قلة منتقاة من ضمن عدد وافر من التعليقات المعادية للمسلمين التي تظهر على برامج فوكس نيوز. وتُعدُّ هذه الأمثلة أيضاً من منتجات مصنع الخوف المحافظ الذي يديره رئيس شبكة فوكس نيوز روجر آيلز Roger Ailes. ويقوم هذا الرجل البالغ من العمر ٧١ عاماً، والذي يقف وراء الكثير من ترويج الخوف التآمري الذي تنفّذه المحطة، بالسماح لمشاعر الرُهاب الشخصية لديه بتوجيه جدول أعمال البرامج التلفزيونية لشبكة فوكس.

وكان آيلز–الذي عمل مستشاراً وخبيراً إستراتيجيّاً لفترة طويلة لصالح الحزب الجمهوري–قد نصح ذات مرة للرئيس رونالد ريغان Ronald Reagan بأن يتخلّى عن الحقائق والأرقام خلال حملة إعادة انتخابه ضد المرشح الديمقراطي المنافس وولتر مونديل Walter Mondale. ويروي تيم ديكينسون Tim Dickinson في مقالة لصالح مجلة "رولينج ستونز" Rolling Stones، كيف نَصَحَ آيلز الرئيس وهو يقول: "إنك لن تحصل على ناخبين بناء على التفاصيل، ولكن الناخبين سيختارونك بناء على المواضيع". لقد قام آيلز بتطبيق نصيحته في شبكة فوكس، إذ إنه يعلم جيداً القوة الكاسحة للعاطفة، وخاصة عاطفة الخوف. لقد كان آيلز محاطاً بالخوف لدرجة أنه كان يذهب إلى العمل كل يوم يرافقه حرس أمني محترف. كما قام بشراء الأراضي المحيطة بمسكنه الذي تُقدَّر قيمته بـ ١,٦ مليون دولار؛ بهدف توسيع المحيط الآمن للمسكن. لقد كان على ثقة بأنه على رأس قائمة المطلوبين لتنظيم القاعدة، فقد ذكر لأحد أصدقائه قائلاً: "كما تعلم، إنهم عازمون على النيلِ مني، وأنا على أتمِّ الاستعداد، وقد اتخذت الاحتياطات اللازمة".

وكان من غير المرجح أن يكون تنظيم القاعدة قد أدرج آيلز من ضمن اهتماماته، ولكن آيلز لم يكن ليقتنع بخلاف ذلك. وفي إحدى المناسبات، وبينما كان آيلز يجلس في مكتبه في فوكس نيوز وهو يرصد التحركات في الممرات على شاشات التلفزيون التي وضعها، دخل رجل داكن البشرة وبدا أنه يرتدي "زيّاً إسلاميّاً". وتسبب هذا الأمر لآيلز بالفزع الشديد ما جعله يضع المبنى بأكمله في حالة تأمين استثنائي، وصرخ قائلاً: "ماذا بحق الجحيم!"، إذ كان على ما يبدو مقتنعاً بأن الإرهابيين قد تتبعوا تحركاته في النهاية. وأضاف قائلاً: "هذا الرجل يمكن أن يُفجّرني"، ولكن اتَّضح لاحقاً أن الرجل كان من أحد حرّاس المبنى. وذكر مصدر

مقرّب من آيلز الحادثة في وقت لاحق وهو يقول: "لقد قلَبَ روجر الطابق بأكمله رأساً على عقب، فقد كان يعاني من رُهاب شخصي تجاه من هم من المسلمين، وهو ما يتماشى مع الأيديولوجيا الخاصة بشبكته".

ويشير تيم ديكينسون الذي يكتب لصالح مجلة "رولينغ ستونز" إلى أنَّ آيلز يُعدُّ من مروّجي الدعاية المحترفين، وهو على دراية كافية بالتركيبة الديموغرافية لجمهوره في شبكة فوكس، حيث إنه قادر على حساب كيف، وأين، ومتى يقوم بزرع قصة ما في مجرى الأخبار بهدف تضخيم تأثيرها:

> إنَّ المشاهد النموذجي لبرنامج *هانيتي*، لنأخذ مثالاً واضحاً جداً، هو شخص من المؤيدين لقطاع الأعمال (٨٦ ٪)، والمسيحي المحافظ (٧٨ ٪)، والمؤيد لحزب الشاي (٧٥ ٪) ولا يحمل شهادة جامعية (٦٦ ٪)، ومن هو فوق سن الـ ٥٠ (٦٥ ٪)، ويدعم الرابطة الوطنية للبنادق (٧٣ ٪)، ولا يدعم حقوق مثليي الجنس (٧٨ ٪) ويعتقد أنّ الحكومة "تعمل أكثر من اللازم" (٨٤ ٪).

وقد أثبت استهداف محتوى البرامج لكل مجموعة من هؤلاء أنه إستراتيجية ناجحة. ووفقاً لأحد المطلعين، فإنَّ آيلز يلتقي بالمذيعين في فوكس قبل بثِّ برامجهم الإذاعية، ويقوم بتزويدهم بمواضيع الحوار والإستراتيجيات المتَّبعة لإيصال الرسالة. وفي الوقت الذي يعتقد فيه المشاهدون أنّ ما يسمعونه هو ليس إلاّ حديث عارض، يكون في الواقع عبارة عن حوار مكتوب. وخلال الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨، أشار ديكينسون إلى أنّ "الإشارات إلى الاسم الأوسط لأوباما [حسين] سرعان ما جرى تداولها في برنامج فوكس والأصدقاء Fox & Friends، وهو برنامج حواري يُذاع صباحاً ويتميز بالفكاهة، ويقوم آيلز باستخدامه كواحد من الأدوات الرئيسة لحقن السمِّ الخاص به في مجرى وسائل الإعلام "[16]. لقد كان من خلال هذا البرنامج بالذات

حيث بدأت الشكوك تدور حول باراك أوباما كونه مسلم وكان قد تعلّم في مدرسة دينية *madrassa* .

* * *

إنَّ شبكة فوكس نيوز لا تقوم باحتكار تصنيع وتسويق الخوف. ومهما كان اللاعبون الأقوياء في الشبكة بارعين في إثارة ضجة ما، ومهما كانت أجندتهم السياسية واضحة ومضلِّلة، فإنَّ عدداً من المحطات الإخبارية قد ساهمت في خلق الهواجس حول المسلمين والإسلام.

وقد كتب إدوارد سعيد في كتابه بعنوان "تغطية الإسلام" *Covering Islam* أنه في ١٩ أبريل (نيسان)، ١٩٩٥، رنَّ جرس الهاتف في مكتبه على نحو أكثر من المعتاد. ومن بعد ظهر ذلك اليوم، تلقّى ٢٥ مكالمة على هاتفه الأرضي من شبكات الأخبار، والصحف الرئيسة، والصحفيين الذين كانوا يستفسرون عن الهجوم على مبنى ألفريد مورا الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما. ومع استمرار تصاعد الدخان من ركام المذبحة على شارع نورثويست فيفث Northwest Fifth، كانت وسائل الإعلام المتحمّسة قد انقضَّت على القصة في اندفاع مجنون؛ بهدف نقل الحقائق للمشاهدين المصابين بالذعر، حيث إنه ومنذ تفجير مركز التجارة العالمي قبل عامين أصبحوا يشكُّون أنَّ مرتكبي هذه الأعمال هم من الأجانب. وكانت الأسئلة التي طُرحت على سعيد في صباح يوم الانفجار الذي وقع في أوكلاهوما تسعى للكشف عن أدلة تُثبت فقط تلك الفرضية: أي تورّط فريق من الرعاع من غير الأمريكيين الذين-يتَّبعون تفسيرات دينهم، وهو الإسلام-قاموا بإزهاق أرواح ١٦٨ شخصاً، وجرح ما يقرب من ٧٠٠ شخص آخرين. وبما أنَّ مهنة إدوارد سعيد طيلة حياته كمؤلف قد تأثرت بجذوره التي تنحدر من الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونه فلسطيني نشأ في الأرض المقدسة، فقد كان

يُعتقد أن لديه معرفة بالطرق التي يعمل بها الإرهابيون. ووفقاً للرواية التي انتشرت في تلك اللحظة، فإنَّ منفِّذ الهجوم كان واحداً من المسلمين، وأنَّ العقل المدبِّر للهجوم قد قَدِم من تلك المنطقة. وكتب سعيد قائلاً: " كان كل واحد من المتسائلين [يتصرّف] على الافتراض أنه بما أنني من منطقة الشرق الأوسط، وكنت قد كتبت عن تلك المنطقة، فلا بدَّ لي أن أعرف معلومات أكثر من معظم الناس حيال هذا الموضوع". وأضاف:" إنَّ الرابط المصطنع بأكمله بين العرب، والمسلمين، والإرهاب كان واضحاً جدّاً بالنسبة لي؛ إذ إنَّ الإحساس بالذنب كنتيجة للتورّط الذي-رغماً عني-أُجبرت أن أشعر به قد صعقني تماماً كذلك الشعور الذي كان من المفترض أن يكون لدي"[17].

لم تكن الاستفسارات الموجَّهة إلى سعيد قد جاءت من العدم، بل كانت نتاج عمل "الخبراء" الذين تستند إليهم القنوات الإخبارية التي تغطي تفاصيل الحدث، بينما هي تتكشَّف. وكانت من بين أولى الشبكات الإخبارية على الساحة شبكة سي بي إس نيوز، التي كلَّفت ستيفن إيمرسون Steven Emerson-وهو الشخص المتمرّس بجميع قضايا الإرهاب-لكي يقوم بتقديم تحليل حول طبيعة الجريمة. ويقول إيمرسون وهو يقف أمام جزء متفحِّم من المبنى أنَّ "من ارتكب هذا العمل كان يحاول إلحاق أكبر عدد ممكن من الإصابات، وهو من إحدى سمات منطقة الشرق الأوسط. وأستطيع أن أقول لكم أنَّ مدينة أوكلاهوما ربما تُعدُّ واحدة من أكبر مراكز الأنشطة الإسلامية المتطرّفة خارج منطقة الشرق الأوسط"[18]. وقد دفعت تلك الإشارة البسيطة المؤسسات الصحفية الأخرى لتقديم المزيد من الشيء نفسه، حيث فتحت الباب على مصراعيه-إذا جاز التعبير-لتحديد هوية المتهم الذي يصعب النيل منه. أما جيم ستيوارت Jim Stewart، وهو مراسل الأمن القومي في إذاعة سي بي إس نيوز، والمختص بشؤون الإرهاب، وضابط سابق برتبة ملازم ثانٍ في الجيش الأمريكي، فقد

ردَّد كلمات إيمرسون بعد ذلك بوقت قصير قائلاً إنَّ "الرهان هنا يرتكز على الإرهابيين من الشرق الأوسط"[19]. كما وافق رئيس مراسلي الأمن القومي في إذاعة أيه بي سي نيوز، جون ماكويثي، على وجهة النظر هذه، إذ يقول: "لقد كانت القنبلة قوية جداً في مدينة أوكلاهوما؛ ما جعل المحققين يوجِّهون أنظارهم على الفور إلى جرائم قتل مشابهة تجد جميعها جذوراً لها في منطقة الشرق الأوسط"[20].

لقد ساهمت هذه التقارير الأولية بإنشاء رواية أخذت تشق طريقها بسرعة نحو النمو. وفي الأيام التي تلت ذلك، بدأ الكثير من "الخبراء" الآخرين بالتخمين حول ما يبدو طبيعة الهجوم التي تحمل أصابع مواطني "الشرق الأوسط". وكان من بين هؤلاء دانيال بايبس Daniel Pipes–الذي يقدم نفسه على أنه أحد المرجعيَّات في المواضيع المتعلقة بالإسلام والإرهاب–إذ أخبر مجلة يو إس أيه توداي *USA Today* أنّ "الناس بحاجة إلى أن يفهموا بأنَّ هذه هي مجرد بداية، إذ إنَّ الأصوليين يتزايدون، وإنهم يعبِّرون بصراحة أنهم يستهدفوننا، كما أنّهم مهووسون بنا إلى حدٍّ كبير "[21]. وفي حين أنَّ تعليقات بايبس لم تأتِ على ذكر إرهابيين مسلمين أو شرق أوسطيين على وجه التحديد، إلاّ أنّ ملاحظاته حول الأصولية شملتهم بالإثم المشترك بسبب الطريقة التي كان هو، والوكالة الإخبارية التي يتحدث إليها، يُديران بها النقاش. وعندما طُلب إليه المجيء لإعطاء نظرة شاملة عن الوضع بصفته شخصاً مضطلعاً في دراسة الإسلام، كانت الاستنتاجات واضحة.

أما فنسنت كانيسترارو Vincent Cannistraro، الوكيل السابق في وكالة المخابرات المركزية، والمحلِّل في قضايا مكافحة الإرهاب في إدارة الرئيس ريغان، فقد أخبر صحيفة الواشنطن تايمز *Washington Times* أنه "في الوقت الراهن تبدو العملية من عمل محترفين، وأنها تحمل بصمات عناصر من الشرق الأوسط"[22]. وفي ذات اليوم، ذَكَرَ

نيل ليفينغستون Neal Livingston، الخبير المُنصِّب نفسه بشؤون الإرهاب، ومؤسس معهد الإرهاب والصراع الداخلي Institute On Terrorism and Subnational Conflict ، إلى صحيفة لندن ديلي ميل *London Daily Mail* أنه "منذ نهاية الحرب الباردة، بدأ التهديد الأكبر للولايات المتحدة يأتي من الشرق الأوسط، وأخشى أنَّ ما حدث في ولاية أوكلاهوما هو الدليل على ذلك "[23].

وفي عصرِ ذلك اليوم، أصبح من المؤكّد أنَّ المشتبه في تورطهم في التفجير كانوا من منطقة الشرق الأوسط، وأضحت عناوين الأخبار تشير بدون تردّد إلى ذلك الجزء من العالم:

- ذكرت صحيفة نيوزداي *Newsday* أنّ المسؤولين كانوا قد تجاهلوا "مجتمعاً كبيراً من المتشددين الإسلاميين الأصوليين في مدينة أوكلاهوما".
- ذكرت صحيفة النيويورك بوست أنّ:"إدراكنا لحقيقة أنّ السيارة الملغومة تشير إلى وجود نشاطٍ لإرهابيين من الشرق الأوسط يجعلنا نفترض بسهولة أن الهدف منها هو تعزيز حالة من الخوف المُزمن، وإشاعة جوٍّ من الفوضى؛ بهدف تعطيل الحياة الأمريكية".
- رأت صحيفة شيكاغو تريبيون *Chicago Tribune* أنّ "الحادث يحمل جميع السِّمات المُميِّزة للسيارات المفخَّخة الإسلامية التابعة لمنطقة الشرق الأوسط".
- أشارت صحيفة النيويورك تايمز أن "كل ما نقوم به بهدف تدمير إرهاب الشرق الأوسط، وهو التهديد الإرهابي الأكبر ضد الأميركيين، لم يكن مُجدياً"[24].

وبطبيعة الحال، فإننا أصبحنا الآن نعلم أنَّ الرجل الذي كان وراء الهجمات في مدينة أوكلاهوما لا يحمل أي "سمة شرق أوسطية"، كما أنه ليس مسلماً. وعلى النقيض من صورة الدُخَلاء التي عكفت الشبكات الإخبارية على تصويرها، فقد كان

تيموثي ماكفي Timothy McVeigh أصولياً من العرق الأبيض، وقد ولد في مدينة نيويورك، وممن خدموا سابقاً في الجيش الأمريكي. وكان ماكفي يحمل بداخله شعوراً قويّاً بالازدراء تجاه حكومة الولايات المتحدة. إذاً السؤال هو: كيف ارتكبت وسائل الإعلام هذا الخطأ الكبير في هذه القضية؟ وربما تكون كلمات جوناثان سميث زي .Jonathan Smith Z–وهو مؤرخ الأديان والأستاذ في جامعة شيكاغو–مناسبة هنا: "إذا كان هناك حبكة لقصة ما تُصوِّر أشخاصاً وأحداثاً، وقد جرى استعراضها على نحو سريع، فإنَّ هذا الأمر لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون محاولة بريئة"[25].

في الواقع، لم يكن ذلك استثناء، إذ إنّ التصورات في وسائل الإعلام التي تُظهر وجود صلة بين الإسلام والعنف يجري نشرها إلى حد كبير عن طريق أفراد ممن تعتمد مهنتهم على ضرورة وجود مثل هذه المعتقدات، إنهم أولئك الأفراد الذين لا تقدِّم "خبرتهم" تقييماً موضوعيّاً للوضع الراهن، بل إنما تشكّل امتداداً لروايات تقوم على نحو مسبق بتصوير المسلمين والشرق أوسطيين بطريقة عنيفة. ويكتب تيموثي ميتشل Timothy Mitchell في هذا الخصوص قائلاً:"إنّ معرفة الخبراء تعمل على تنظيم العلاقات الاجتماعية، ولكنها لا تعمل أبداً على تقديم تصوُّر لهم أو الإبلاغ عنهم"[26].

ولنبدأ هنا بتعليق ستيفن إيمرسون الأوّلي–الذي وضع الأخبار العالمية في موجة من التكهن والتعميم–والذي يجب أن يوضع في سياق عمل إيمرسون. وبوصفه مديراً للمؤسسة الربحية إس أيه إي برودكشنز SAE Productions، التي تأسست قبل أشهر فقط من الهجوم الذي وقع في مدينة أوكلاهوما، فقد تلقّت مجموعة إيمرسون أكثر من ٣ ملايين دولار من مشروعه الآخر غير الربحي وهو "مشروع التحقيق عن الإرهاب" Investigative Project on Terrorism (IPT)، وذلك بهدف البحث في الروابط بين الإرهابيين المسلمين الذين يعملون في الخارج، وبين

الهجمات التي ينفذها أعضاء في الولايات المتحدة تابعون لتلك الخلايا المزعومة[27]. وفي فيلمه الوثائقي بعنوان "الجهاد في أمريكا" *Jihad in America*، أقنع إيمرسون عامة الجماهير بذلك الخوف؛ (ما أدَّى إلى جذب التبرعات لمجموعته غير الربحية)، وذلك بعد فترة وجيزة من الهجوم الأول على مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣. وتابع إيمرسون في هذا المشروع، حيث عمل بعد انتهائه من فيلمه الوثائقي على إصدار كتابين أصبحا من الكتب الأكثر مبيعاً، وهما بعنوان "المؤسسة المتحدة للجهاد: دليل الإسلام المسلّح في الولايات المتحدة الأمريكية" *Jihad Incorporated: A Guide to Militant Islam in the U.S*، و"الجهاد في أمريكا: الإرهابيون يعيشون بيننا" *American Jihad: The Terrorists Living Among Us* [28]. إنَّ هذه الحقائق، التي بالتأكيد لم تُناقش من جهة إيمرسون أو وسائل الإعلام، تقوم بتسليط بعض الضوء على السبب وراء بثِّه للذعر في النفوس.

وبالإضافة إلى إيمرسون، نجد دانيال بايبس الذي كان أيضاً من أولئك الراسخين بعمق في الأعمال المتعلقة ببث الخوف، حيث قام في أواخر الثمانينيات، وأوائل التسعينيات من القرن المنصرم، بالانحياز إلى الجماعات اليمينيِّة، مثل معهد بحوث السياسة الخارجية Foreign Policy Research Institute، ومعهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى Washington Institute for Near East Policy. ويقوم مركز بايبس للأبحاث–الذي يحمل اسم منتدى الشرق الأوسط وتأسسَّ في العام ١٩٩٤– بوصف مهمَّته على أنها حماية "مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وتشمل محاربة الإسلام المتطرف، والعمل على قبول الفلسطينيين لدولة إسرائيل، ومؤكداً بقوة على مصالح الولايات المتحدة من جهة، ومصالح المملكة العربية السعودية من الجهة الأخرى، بالإضافة إلى وضع إستراتيجيات للتعامل مع العراق واحتواء إيران "[29]. لقد

نتج عن هذا الأمر تصوّرات منحرفة فكرياً حيال المسلمين، والإسلام، والعرب، والشرق الأوسط، ولم يكن أقلُّها ذلك الذي جاء في مقالة كتبها في العام ١٩٩٠، وخصَّ بها مجلة "كامنتري" *Commentary*:

> يمكن أن يكون هناك إما دولة إسرائيل أو دولة فلسطين، ولكن ليس كلاهما معاً. كما أنَّ الاعتقاد بأنه من الممكن لدولتين أن تتعايشا على نحو سلمي ومستقر في منطقة صغيرة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، هو إما ضربٌ من النفاق أو السذاجة. وإذا كنا قد تعلمنا شيئاً خلال السبعين سنة الماضية، فهو أنه يمكن أن يكون هناك دولة واحدة فقط إلى الغرب من نهر الأردن. ولذلك، يمكننا أن نقول لأولئك الناس الذين يسألون لماذا يجب أن يُحرم الفلسطينيون من دولة، أنّ الجواب البسيط هو: إذا قمتم بمنحهم دولة، فإنكم سوف تحرِّكون مجموعة من الأحداث التي من شأنها أن تؤدي إما إلى زوال تلك الدولة أو زوال إسرائيل[30].

أما نيل ليفينغستون، الذي استشهد الآخرون بتصريحاته على نطاق واسع بعد الهجمات، فلم يكن يميل إلى استخدام التعبير الذي يشير إلى أنّ منفذ العملية هو "شرق أوسطي"، وذلك لأسباب تتعلق بعمله في معهد الإرهاب والصراع الداخلي، الذي كان يعتمد على روابط مثل هذه لتمويل البحوث، بالإضافة إلى منصته الشخصية التي كانت ترتكز على نحو كامل تقريباً على الاستشارات المتعلقة بالإرهاب. وحتى عندما أظهرت الأدلة أنّ ماكفي هو الذي ارتكب هذه الأفعال الشنيعة، كان ليفينغستون يسعى لإيجاد ما يربط الحادثة مع منظمات شرق أوسطية. وفي شهر مايو (أيار)، أي بعد شهر واحد بعد عملية اعتقال ماكفي، قال ليفينغستون في مقابلة مع صحيفة "بوسطن غلوب" *Boston Globe* أنَّ:

> هناك تشابه ملحوظ بين الأساليب المستخدمة من جهة الإرهابيين الإسلاميين في تفجير ثكنات المارينز في بيروت، والهجوم على مركز التجارة العالمي، وحادثة التفجير في مدينة

أوكلاهوما. إنَّ حمولة الشاحنة من المتفجرات تكاد تكون بمثابة التوقيع أو بطاقة التعريف، إذ هو السلاح المفضل عند هذه المجموعات. وكما هي العادة، فقد وجد هؤلاء الإرهابيون المتطرفون عناصر من المتشدِّدين المحليِّين لاستخدامهم كأشخاص مغفَّلين في التفجيرات الحقيقية. وقد قاموا بتزويد المال، والخبرة التقنية، والنشطاء من ذوي المهارات العالية بهدف إدارة العملية، ومن ثم الخروج من المدينة قبل أن يُلقى القبض عليهم[31].

وبعد اعتراف ماكفي بالجريمة التي ارتكبها، وما تبعه من محوٍ لتصورات الناس المتعلقة بوجود أي احتمال من شأنه أن يُدين المسلمين، قال لفينغستون وهو يناقش موضوع الإرهابيين اليمينيِّين من السكان المحليِّين في برنامج "واجه الصحافة" Meet the Press: "نحن لم نكن نعتقد أنهم كانوا يشكّلون ذلك التهديد الخطير حتى وقوع هذه الأحداث، ونحن لا نعتقد أنَّ هؤلاء الناس إرهابيون، ولكن هناك بعض الناس من مثيري الشغب"[32]. ومن الغرابة بمكان،أنه بعد ١٧ عاماً، وفي تقرير نشره مركز النزاهة العامة Center for Public Integrity في العام ٢٠١١، أشار ليفينغستون أن ماكفي كان يعمل بالتعاون مع إرهابيين مسلمين لتنفيذ الهجمات.

* * *

وتعكف معظم النقاشات التي تدور حول دور وسائل الإعلام في تصنيع وترويج الخوف من الإسلام إلى التعامل مع الموضوع من جانب واحد: أي الجهود المتضافرة من جهة شبكات الأخبار مثل فوكس، بالإضافة إلى مجموعة أيديولوجية من "الخبراء" التي تقوم بنشر الصور السلبية، والنمطية باستمرار عن المسلمين والإسلام. ولكن من المفيد أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار الطرق التي يمكن فيها لوسائل الإعلام- تحت تأثير صناعة الخوف من الإسلام-أن تدفع بحَملاتها إلى المستوى الذي يليه، وتسعى فعلاً للقضاء على الصور "الإيجابية" عن المسلمين أيضاً. إنَّ الحديث عن

وجود عائلات مسلمة طبيعية وعقلانية تمتزج بسلاسة وبأمان في النسيج الاجتماعي، والسياسي الأمريكي تتناقض إلى حد كبير مع الصورة الظلامية، والمخيفة التي يأمل اليمينيُّون بالترويج لها.

لقد جذب العرض الأول من برنامج "المواطن الأمريكي المسلم" All-American Muslim على شبكة TLC في نوفمبر (تشرين الثاني)، عام ٢٠١١، عدداً كبيراً من المشاهدين وصل إلى ١,٧ مليون مشاهد. وقد تتبَّع البرنامج الواقعي حياة خمس عائلات مسلمة تعيش في مدينة ديربورن بولاية ميشيغان، وأظهر كيف تعيش هذه العائلات حياتها اليومية، والدور الذي تلعبه معتقداتها في الخيارات التي تتّخذها. وقد حصلت الحلقة الأولى من البرنامج الذي يُبثُّ ليلة الأحد تحت عنوان:"كيف تتزوجين من مسلم"، على أعلى تصنيف للقناة التلفزيونية خلال أكثر من عام، وذلك في فئة النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين ١٨-٣٤ عاماً[33]. وكانت صحيفة النيويورك تايمز، وصحيفة يو إس أيه توداي، وصحيفة الواشنطن بوست، ومجلة تايم قد أشادت جميعها بالبرنامج. أما الصحيفة الترفيهية "ذا هوليوود ريبورتر" *The Hollywood Reporter*، فقد وصفت البرنامج بأنه "رائع"، مشيرة إلى أن "مشاهدة حياة تلك العائلات ستعلمنا الكثير عن ثقافة الأمريكيين الذين يمارسون دين الإسلام، وكيف أنهم يشبهوننا ويختلفون عنا في ذات الوقت"[34].

وبعد فترة وجيزة من العرض الأول للبرنامج، كان هناك عامل صغير ولكنه مؤثِّر في صناعة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) قد حشد الهستيريا حول البرنامج، والتي أدت إلى حالة من الجنون في أرجاء الوطن. حيث ادَّعت "رابطة الأسرة في فلوريدا" The Florida Family association (FFA)، وهي بمثابة الغطاء لليمين المتديّن التي يديرها ديفيد كيتون David Caton، أنّه من خلال إظهار المسلمين

في ضوء إيجابي، أي المسلمون "الحقيقيون"، فهذا يعني أنه يجري تبرئة المسلمين السيِّئين. وأشار كيتون إلى أنّ برنامج "المواطن الأمريكي المسلم" هو "دعاية تهدف على نحو واضح إلى مواجهة المخاوف المشروعة في الوقت الحاضر حول الكثير من المسلمين الذين يدفعون قُدماً بالأصولية الإسلامية وأحكام الشريعة"[35]. وكان قد كتب في رسالة عبر البريد الإلكتروني بعث بها لأعضاء "رابطة الأسرة في فلوريدا" أنّ "البرنامج يعرض فقط نماذج عن المسلمين من الناس العاديين، بينما يقوم باستبعاد الكثير من المؤمنين الإسلاميين الذين تشكِّل أجندتهم خطراً واضحاً وقائماً على الحريات، والقيم التقليدية التي يعتزُّ بها غالبية الأمريكيين"[36]. وحثَّ كيتون قاعدته على الكتابة إلى الشركات التي تدعم تلك الشبكة بالإعلانات لكي تتوقف عن ذلك الدعم.

ولم تمض فترة طويلة حتى انضمَّ كلٌ من باميلا جيلر، وروبرت سبنسر إلى الأعداد المتزايدة من الناس الذين طالبوا المُعلِنين مرة أخرى بالتراجع عن تقديم رعايتهم للبرنامج، حيث كتبت جيلر قائلة:"إنّ لكل شركة الحرية في اختيار المكان الذي تضع فيه أموال إعلاناتها. لقد قامت ٦٤ شركة بسحب إعلاناتها حتى الآن، وهم محقّون في ذلك. والموضوع ليس له علاقة بكون البرنامج يتحدّث عن المسلمين، ولكن البرنامج مبنيٌّ على كذبة ودعاية متواصلة عن المتعالين من المسلمين"[37]. ونشرت جيلر على مدوِّنتها معلومات الاتصال بمتجر لوز هوم إيمبروفمنت Lowe's Home Improvement، الذي يتألف من سلسة متاجر لبيع الأدوات المنزلية، والذي كان من بين أول من قاموا بإيقاف تمويلهم. وأقحم روبرت سبنسر نفسه في الجدل القائم، الذي رأى أنّ المشكلة من وجهة نظره ليست في تصوير المسلمين كباقي المواطنين الأميركيين، ولكن ذلك التصوير لم يأت أيضاً على ذكر المسلمين الشرسين، أي أنهم لم يُلقوا على الجماهير عبء الذنب الجماعي[38].

وعلى العموم، فقد قام ٦٥ من المعلنين بسحب أموالهم من البرنامج، ولكن ذلك لم يكن مهمّاً، إذ أشارت TLC أن الإعلان على شبكتها ما زال قوياً[39]. وعلى أية حال، فقد أوضح هذا الموقف قوة صناعة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، أي أنَّ تمكُّن مجموعة صغيرة من اليمينيّين المسيحيين غير المعروفين إلى حد كبير في ولاية فلوريدا من جذب اهتمام الأمة، وخلق مثل هذا الجدل، يُعدُّ أمراً مؤثراً. لقد كانت "رابطة الأسرة في فلوريدا" مجرد واحدة من عدد من الجماعات المسيحية الإنجيلية التي وجدت في صفحات الكتاب المقدس سبباً وجيهاً لإيذاء المسلمين والتضحية بهم.

opelkandl.com